

محمد إقبال في مدينة الرسول ﷺ

حمامة جرعى دومة الجندل، اسجعي

فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

فكان شعره في النبي الكريم ﷺ
من أبلغ أشعاره وأقواها، وكان حشاشة
نفسه، وعصارة علمه وتجاربه، وكان
تصويراً لعصره، وتقريراً عن أمته،
وتعبيراً عن عواطفه.

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات،
وهو يتخيل أنه مسافر إلى مكة والمدينة
- شرفهما الله - يهوي به العيس،
ويسير به الركب على رمال وعساء،
يتخيل، بشدة شوقه وحب، أنها أنعم من
الحرير، وأن كل ذرة من ذراتها قلب
يخفق، فيطلب من السائق أن يمشي
رويداً ويرفق بهذه القلوب الخفاقة.

ويعدو الحادي بما لا يفهمه،
فتثور أشجانه، وتترنح أعطافه، وتهيج
شاعريته، وتتطلق قيثارته بشعر رقيق
بليغ.

ثم يسعد بالمثل بين يدي الرسول،
فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله به
عليه.

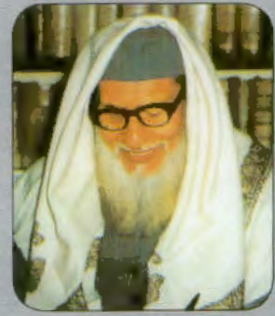
وينتهز الفرصة، فيحدثه عن
نفسه، وبلاده، والفترة التي يعيش
فيها، وعن أمته، وعن الأزمت،
والمشكلات التي تعانيتها، وما فعل بها

لقد عاش الدكتور محمد إقبال
شاعر الإسلام وفيلسوف العصر
- مدة حياته - في حب النبي ﷺ،
والأشواق إلى مدينته، وتغنى بهما في
شعره الخالد، وقد طفح الكأس في
آخر حياته، فكان كلما ذكرت المدينة
فاضت عينه وانهمرت الدموع.

ولم يقدر له الحج، وزيارة
الرسول ﷺ بجسمه الضعيف،
الذي كان من زمان يعاني الأمراض
والأسقام،

ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله
القوي، وشعره الخصب العذب،
وقلبه الولوع الحنون، وحلق في
أجواء الحجاز، وتحدث إلى
الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه
وحبه، وإخلاصه ووفاءه^(١)، وتحدث
إليه عن نفسه، وعن عصره، وعن
أمته، وعن مجتمعه.

وقد فاضت في هذا الحديث
قريحة الشاعر، وانفجرت المعاني،
والحقائق التي كان الشاعر يغال بها
ويمسك بزمامها، وينتظر فرصة
إطلاقها، وقد رأى أن فرصتها
قد حانت، وهذا أوانها ومكانها،
فخاطب نفسه بقول الشاعر:



الشيخ أبو الحسن الندوي - الهند

وكبير السن، فمشت في نشوة وطرب ولم تبال، كأن
الصحراء حرير تحت أرجلها»^(٢)

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو
بالصلاة على النبي ﷺ.

ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء،
يدوم أثرها في جبهته طول حياته، ويقترح ذلك على
أصحابه وزملائه.

ويملكه الشوق، فيحدو، وينشد أبياتاً من شعر
العراقي^(٥) والجامي^(٦) فيتساءل
الناس: من هذا الأعجمي الذي
يفني ويحدو بلغة لا تفهمها، ولكنها
نغمة تشجي القلوب، وتملؤها إيماناً
وحناناً، حتى يذهل الرجل في هذه
الصحراء عن الغداء والماء؟

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في
الطريق ولا يستبطن الوصول، بل
يقترح على سائقه أن يأخذ طريقاً
أطول، حتى يعيش في هذه الأشواق،
وفي هذا الحنين مدة أوسع، وتشتد
لوعة الفراق، لأنها زاد العشاق

ونزعة المشتاق.

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة في سرور
وحنين، حتى يصل إلى المدينة، فيقول لزميله: «تعال يا
صديقي! نيك سروراً ونتحدث ساعة، ونرسل النفس على
سجيتها فإن لنا شأناً مع هذا الحبيب، الذي أسعدنا به
الحظ، بعد طول فراق وشدة اشتياق»^(٧)

ويقبل على نفسه، فيتعجب كيف اختص، من بين
أقرانه، بهذه السعادة، ثم يقول:

«لا عجب! فإن المحبين المتيمنين أكرم هنا من الحكماء
المتفلسفين، يا سعادة الجد، يا حسن الطالع! لقد سمح
لصعلوك مملوك، أن يدخل على السلاطين والملوك»^(٨)

الزمان وطوارق الحدثان، وما فعلت بها هذه الحضارة
الغربية، والفلسفات المادية، وما فعلت برسالتها والأمانة
التي حملتها، وأين هي من ماضيها وخصائصها، يرثي
لها تارة ويبكي، ويشكرها مرة ويعاتب، ويشكو غربته في
وطنه، ووحدته في مجتمعه، وضيق رسالته في أمته.

وقد سمى هذه المجموعة بـ (هدية الحجاز)، كأنها
هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه، ولا شك
أنها هدية مباركة للعالم الإسلامي، ونفحة فائحة من
نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة
الحبيبة، وقد أربى على الستين
ووهنت قواه، في سن يفضل فيها
الناس الراحة والإقامة، فما باله
يسافر وهو شيخ، وقد أضعفه
المرض والشيب؟ والسفر إلى
الحجاز شاق مضم، وقد نصحه
الأطباء، والأحبة بالراحة والهدوء،
ولكنه يعصيه ويطيع أمر الحب،
يلبي منادي الشوق ويقول:

«لقد توجهت إلى المدينة رغم
شبيبي وكبر سني، أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين،
ولا عجب فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره،
فإذا أدبر النهار، وأقبل الليل رفرف بجناحيه، وقصد
وكره لياوي إليه، ويبيت فيه»^(٩) كأنه يقول:

- لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة - وهي وكر طائر
الروح ومأرز^(١٠) المؤمن - في أصيل حياتي، وفي سن أشرفت
فيها شمس الحياة على الغروب، أما رأيتم الطائر إذا
جن الليل أسرع إلى وكره.

بدأ محمد إقبال سفره، وهو شيخ مريض، وسارت
به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً، وقد قال لها:
«رويدك يا حبيبتي! فإن راكبك لاغب، ومريض،



ولا يلبث محمد إقبال - وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة - أن يذكر أمته المسلمة، والشعب المسلم الهندي، يذكر آلامهما وآمالهما، فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر، وحقيقة الرائد، وما أجملهما إذا التقتا. يقول: «إن هذا المسلم البائس، الذي لا تزال فيه بقية من شمم وإباء، وأنفة الملوك وعزة الآباء، لقد فقد مع الأيام، يا رسول الله! لوعة القلب وإكسير الحب، إن قلبه حزين منكسر ولكنه لا يعرف سر ذلك»^(٩).

«بماذا أحدثك يا رسول الله؟ عن آلامه ورزقيته؟ حسبك أنه هوى من قمة عالية، إنه هبط من تلك العلياء التي وصلت به إليها، وكلما ارتفع المكان الذي يسقط منه الإنسان كان ألمه شديداً، وكانت الصدمة عظيمة، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة، الهاوية من قمة المجد العانية»^(١٠).

«إنه لا يزال الزمان يعاديه، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء، بعيداً عن غايته ومنزله، حسبك من هذه الأمة، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب، إنها تعيش من غير إمام»^(١١).

«إن غمده فارغ ككيسه، فهو أعزل فقير، وإن الكتاب، الذي فتح به العالم، وضعه في بيته الخرب، على طاق تراكمت عليه الأتربة، ونسج عليه العنكبوت»^(١٢).

«إنه أصبح، بطول عهده بالمغامرات والبطولات، لا يفهم لغة المغامرين، وإهابة الشجعان المجاهدين، وقد ألف نغمة المغنين، وعاش بين الزفرات والأنين»^(١٣).

«وإن عينه فقدت النور، وإن قلبه حرم السرور، إن رزقيته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور»^(١٤).

ثم يذكر الفرق بين ماضية العظيم، الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء، وحاضره القاسي الكالح، وكيف صعب عليه أن يتقشف، ويعتمد على نفسه، ويكدح في الحياة.

وما أبلغ قوله: «إنه طائر مدلل، كنت تطعمه بيدك، وقد رببته بالفواكه، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء»^(١٥).

ويتذكر محمد إقبال - وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد - أن سببها النظر المادي البحث، خواء الروح، وبرودة القلب، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس.

ويعتقد أنه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينية، والفلسفة الاقتصادية المادية إلا الحياة التي تقوم على الحب والزهد، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق، المحب الزاهد، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد؛ وإذا وجدت هذه الحياة اضطرت الناس إلى تقديرها وإجلالها.

إنه لا يعمل انحطاط المسلمين بالفقر، والضعف في المادة، بل يعمل بانطفاء تلك الشعلة التي التهمت في صدورهم، ويقول: «إن أولئك الفقراء - المسلمين الأولين - لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في صف واحد، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك، ولما انطفأت هذه الجذوة في صدورهم انطووا على نفوسهم، وأووا إلى الزوايا والتكايا»^(١٦).

إنه يستعرض تاريخ المسلمين، فيرى فيه ما يخجل كل مسلم، يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا، ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله، وخضوع للجبابرة والطفاة ما يتندى له الجبين حياء.

يذكر (إقبال) ذلك كله ويطلق رأسه حياء وخجلاً، ويقول في صراحة واعتراف، وبلاغة وإيجاز: «إن جملة القول، ما كنا جديرين بك يا رسول الله»^(١٧).

ويلقي نظرة على العالم الإسلامي، وقد جال في أنحائه، وعرف مراكزه، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي، ويقول في إجمال: «إن المراكز الروحية (الرباطات

المسلمين يوماً، وشكوت إلى ربي، فقيل: ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب، ولا يعرفون المحبوب؟ يعني أنهم يملكون مادة الحب، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به، ويوجهونها إليه.

فقلوبهم تائهة، وعقولهم مضطربة، وجهدهم ضائع وعملهم ضعيف، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور»^(٢٠) وهي حياة من رزق القلب وحُرم الحب، أو حياة من عرف الحب، وجهل المحبوب؛ إنها، لا شك، حياة عذاب وشقاء، وحياة خيرة وضلال.

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين، وغير قانط من رحمة الله؛ بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين، وقطعهم الرجاء من نهضتهم، وتعليقهم الأمل بغيرهم، ويقول في عتاب وتألّم: «إن أحوالهم وأحاديثهم تتم على أنهم يائسون من جميع أسباب الخير، وأنهم متشائمون، ينظرون إلى المسلمين، وإلى الحياة بمنظار أسود»^(٢١).

ويقول: «إن المسلم، وإن كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان، ولكن ضميره وتفكيره، لا يزالان ضميرَ الملوك وتفكيرهم، وإنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه، كان جماله جلالاً، وكانت له سطوة لا تطاق»^(٢٢). وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه، فتحكي حكايتها، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه.

يقول: «إني أستعق العطف والعناية، فإني في صراع عنيف، وحرب دامية، مع عصري المادي»^(٢٣). ولا شك أن إقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية، وتحداهما وانتقدتهما، وزيقهما في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة.

وقد كان مربى جيل جديد، مؤمن بالله، واثق بنفسه، معتد بشخصيته وشخصية الإسلام، كافر بالأسس المادية والتفكير المادي، الذي قامت عليه



والزوايا) أصبحت فقيرة، لا تملك غذاء القلب، ولا تحمل رسالة الحب.

والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) طغى عليها التقليد، فهي تردد ما تلقنته في الماضي، في غير إبداع وابتكار؛ وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة.

أما أندية الشعر والأدب، فقد خرجت منها كثيراً حزيناً، فليس في نعماتها وأفكارها ما يبعث الروح، ويشير الطموح؛ إنه شعر بارد، يخرج من قلب بارد، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت»^(١٨).

ويقول: «قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها، فوجدت المدن تنص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت، أما المسلم الذي يفرق منه الموت، فلم أر له عيناً ولا أثراً»^(١٩).

ويذكر السر في ضعف المسلمين، وتشتت أهوائهم وخمودهم، فيقول: «لقد شقَّ عليّ ما أراه من سوء حال

الحضارة الغربية، وحق له أن يقول: «لقد أذنت في الحرم، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب، لقد كان ثائراً على فتن عصره، وكنت ثائراً على فتن عصري»^(٢٤)

ويذكر تمرده على العلوم الغربية، وتفلمته من شباكها، واحتفاظه بعقيدته، وإيمانه وخصائصه، ويقول بحق وجدارة: «كنت كطائر يقع على شبكة، فيقرض الحبال، ويأخذ الحب، ويطير بسلام»^(٢٥) وكذلك كان، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها، ورمى بقشورها، وخرج من حبالها سالماً.



ثم يقول في افتخار واعتزاز: «يعلم الله! أنني رحلت في أعماق هذه العلوم، واكتويت بنارها، من غير أن أرزأ في عقيدتي، وخلقلي وصلتي بك، وقد جلست في نارها بشجاعة، وخرجت منها بسلامة، كما كان شأن إبراهيم - عليه السلام - مع نار نمرود»^(٢٦)

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في أوروبا، بين الكتب الجافة، والفلسفة الدقيقة، والعلم الواسع، والجمال الفاتن، والمظاهر الخلافة؛ فيقول: «لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي، جاهلاً لشخصيتي؛

حتى لما وقع بصري علي لم أعرف نفسي»^(٢٧) ويقول: «لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً، يا له من صداع اشتريته! لقد عشت بين علمائه وفلاسفته، وبين غيده الحسان، يا لها من فترة مظلمة قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب.

إن دروس الحكماء قد صدعت رأسي، وكدرت بالي؛ ذلك لأنني نشأت في حضانة الحب والإيمان، فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي إلا العاطفة والحنان»^(٢٨)

وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التي تمثل العلم والدين، فينتقد فيها الجفاف، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب، فيقول: «إن العالم الديني لا يحمل همماً، إن عينه بصيرة، ولكنها جافة لا تدمع، لقد زهدت في صحبته لأنه علم ولا هم، وأرض مقدسة ولا زمزم»^(٢٩)

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز، لأنه يحمل علماً كثيراً، وعقلاً كبيراً، ولكنه مع الأسف رمال جافة، وجبال جرداء ليس فيها زمزم؛ ومكة ببيتها وزمزمها، ليست برمالها وبطحائها وجبانها فحسب.

فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً، ولساناً بلغياً، وعقلاً مستثيراً، ولا يحمل دمعة في عينه، ولا لوعة في قلبه! إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداهها.

ثم يحكي عن نفسه، ويقول: «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحد، ولم أستعن بأحد في حل مشكلاتي، ذلك لأنني اتكلت على غير الله مرة واحدة، فسقطت عن مقامي، وعوقبت بالهوان مني مرة»^(٣٠)

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم، فيقول: «إني أحترق بنار شوقي وحبّي، وأستغرب أنني

خلقت في عصر لا يعرف الإخلاص، ولا يعرف سوى المادة والأغراض؛ في عصر لم يعرف لوعة القلب، ولم يذق الحب. أنا غريب في الشرق والغرب، أعيش وحدي، وأغني وحدي، وقد أتحدث إلى نفسي وأخفف من أشجاني وآلامي»^(٣١)

ويقول: «إن إخواني لم يعملوا بما قلت لهم، إنهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري، إليك أشكو يا سيد الأمم! من أناس لا ينظرون إلي إلا كشاعر أو متغزل.



الملك عبد العزيز

لقد أمرتني يا رسول الله! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود، وأنشدهم بما ينفع فيهم النشاط والروح، ولكن هؤلاء القساة يقترحون علي أن أنوح على الأموات في الشعر، وأنظم تاريخ الوفاة، فأين هذا مما أمرتني به»^(٣٢)

ويشكو، في توجع وحزن عميق، زهد أبناء عصره في العلم الذي كان يحمله، والرسالة التي يقوم بها في شعره، ويقول: «عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحد، فلم أر فيه رغباً ولا له طالباً، وأبحت ثروتي، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدرًا؛ فليعمر حبك قلبي، وليشغل حديثك لساني، فأني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة مني»^(٣٣)

ويختتم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود - باعتباره ملك الحجاز في عهده - وهو خطاب موجه إلى جميع ملوك العرب، وزعمائهم، وعظمائهم، يحذره من الاستعانة بالأجانب، والدول الأوروبية، ويدعوه إلى الاعتماد على الله، ثم على ما عنده.

يقول: «اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء، ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك؛ ولا تنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام»^(٣٤)

هو لاء القساة يقترحون علي أن أنوح على الأموات في الشعر، وأنظم تاريخ الوفاة، فأين هذا مما أمرتني به»^(٣٢)

الهوامش:

- (٧) روائع إقبال، ص ١٦٢.
- (٨) روائع إقبال، ص ١٦٢.
- (٩) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١٠) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١١) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١٢) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١٣) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١٤) روائع إقبال، ص ١٦٣.
- (١٥) روائع إقبال، ص ١٦٤.
- (١٦) روائع إقبال، ص ١٦٤.
- (١٧) روائع إقبال، ص ١٦٥.
- (١٨) روائع إقبال، ص ١٦٥.
- (١٩) روائع إقبال، ص ١٦٥.
- (٢٠) روائع إقبال، ص ١٦٥.
- (٢١) روائع إقبال، ص ١٦٦.
- (٢٢) روائع إقبال، ص ١٦٦.
- (٢٣) روائع إقبال، ص ١٦٦.
- (٢٤) روائع إقبال، ص ١٦٧.
- (٢٥) روائع إقبال، ص ١٦٧.
- (٢٦) روائع إقبال، ص ١٦٧.
- (٢٧) روائع إقبال، ص ١٦٧.
- (٢٨) روائع إقبال، ص ١٦٧.
- (٢٩) روائع إقبال، ص ١٦٨.
- (٣٠) روائع إقبال، ص ١٦٨.
- (٣١) روائع إقبال، ص ١٦٨.
- (٣٢) روائع إقبال، ص ١٦٩.
- (٣٣) روائع إقبال، ص ١٦٩.
- (٣٤) روائع إقبال، ص ١٦٩.
- (*) روائع إقبال، أبو الحسن الندوي، ص ١٥٩، ط ١، دار القلم، دمشق، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩ م.
- (١) ليس هذا الحديث من الاستغناء في شيء، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب، استعمله شعراء إيران والهند قديماً وحديثاً.
- (٢) روائع إقبال، ص ١٦١.
- (٣) المأرور: الملجأ.
- (٤) روائع إقبال، ص ١٦١.
- (٥) شاعر فارسي، له قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ.
- (٦) شاعر فارسي، له قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ.